ركن الأدب المريدي

الشمائل المحمدية في قصيدة "جَذْبُ الْقُلُوب" – دراسة وتأصيل

بقلم الباحث: شيخ مصطفى غاي[206]

خلق الله الرسل واصطفاهم لحمل عبء الرسالة إلى العالمين، وجعلهم واسطة العقد بين العباد **وخالقهم رب السماوات والأرضين**، فهم نجوم هذه البسيطة ومعالمها التي بها يهتدي الخلائق في كل حين، وبهم قطع الله الحجة عن كل ناكر ومستكبر يستنكف عن اتباع الحق المبين.

ونبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاز من المفاخر الحظ الأوفر والنصيب الأفخم، فقد هيأه الله بما لم يهيئ به أحدا من قبله من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك لكونه الخاتِم الذي به يُختم بابُ النبوة وبه تكمل الرسالة الإلهية فكان بحق عجبا في خَلْقه وفي خُلُقه معا، وآية في جمعه بين مقتضيات الوحي ومتطلبات تبليغه من مخالطة الناس والتعامل معهم.

ولما كان تصديقه والإقرار به لازما لاكتمال الإيمان اقترن ذلك بضرورة معرفته حق المعرفة فجاءت كتب الشمائل حافلة بأوصافه ومليئة بسجاياه الشريفة وأخلاقه الحميدة. وخصه الشعراء المصاقع بالمدح والدفاع عنه فكانت القصائد والأمداح النبوية وعاء وميدانا للإبداع والإمتاع.

وكان من بين تلك القصائد **جذب القلوب لعلام الغيوب** للشيخ أحمد الخديم ـ رضي الله عنه ـ وقد تضمنت جملة صالحة من هذا النوع وهي مما سارت به الركبان وطربت بسماعها الآذان.

وهي قصيدة من مجزوء الرجز مطلعها:

الحمد للحق المبين

من كونه لي يبين

على الكتاب المستبين

مع جميع النعم

وتدور في فلك مدح سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والصلاة عليه وذِكر أوصافه الشريفة وسجاياه الحميدة التي أكرمه بها المولى الكريم تبارك وتعالى، والتي كان بسببها موضع العُجْب والإجلال من الناس الذين عايشوه وخالطوه سيان في ذلك من آمن به وصدق برسالته وبين من عاند وجحد بما جاء به. فهي خصال تقوم بأنفسها مقام المعجزة التي تبرهن على صدق صاحبها وأن ما يدعو إليه حق من عند الله.

وللشمائل عندي في هذه القصيدة قصة وحكاية، وذاك أنه اتفق أن درسنا شمائل الترمذي وسردناه سرد مباحثة ومُفَاتشة فكانت الكلمات الواردة فيها من نحو (المكلثم) و(المطهم) تذكرني بهذه القصيدة وتعود بي إلى دررها التي تضمنت أوصاف سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام فكانت الفكرة التي ترافقني في هذا الوقت هي: لم لا أضع بإزاء هذه الأبيات هذه الأحاديث؟ ولم لا يكون هناك تأصيل لهذه الشمائل بالاستعانة بشمائل الترمذي فيكون ذلك جمالا فوق جمال؟

والشمائل المحمدية التي وردت في القصيدة دون احتساب الكرامات والمعجزات عدد ليس بالكثير ويمكن حصرها ما بين كلام الشيخ رضي الله عنه في القصيدة:

[206] طالب باحث بمؤسسة معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية — الرباط.

يا ملهما قد وفقا

صل على من خلقا

والخَلْق فاق خُلُقا

صل على من خلقا

إلى قوله:

وهو أكمل الورى

خَلقا وخُلُقا ظهرا

والمثل قط لن يرى

ولن يرى في الشيم [207]

ذلك لأن هذا القدر من القصيدة هو الذي ينطبق عليه تعريف الشمائل في الاصطلاح.

وهو ما ينصب العمل عليه إن شاء الله.

والمنهج الذي يسير عليه هذا العمل هو إيراد المقاطع الشعرية على الترتيب الذي هو عليه في القصيدة وتأصيل كل واحد منها واحدا تلو الآخر مع الاجتزاء من الأحاديث الطوال بما يخدم الغرض ويصب في صميم العمل فحسب، وذلك على النحو التالي:

قد كان ذا **توسط**

في القدّ جالي السّطط

ولم يكن بالمفرط

ولم يكن بآدم

ورد أصل معنى البيت في كتب الشمائل بصيغ مختلفة ففي شمائل الترمذي باب صفة النبي صلى الله عليه وسلّم عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لَيْسَ** [208] **بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ، وَلَا بِالْأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ، وَلَا بِالْآدَمِ**، وَلَا بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبْطِ، بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ».[209] ونقل مثل ذلك القاضي الإمام أبو بكر محمد بن علي القفّال الشّاسي في كتابه شمائل النبوة و ذلك بإسناد طويل يصل إلى نافع بن جبير بن مطعم عن علي رضي الله عنه قال: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم **بالطويل ولا بالقصير** شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس واللّحية مشرب بحمرة ضخم الكراديس طويل المسربة، إذا مشى تكفّأ تكفّؤا كأنه من صبب لم أر مثله قبله ولا بعده صلى الله عليه وسلم.[210]

ولم يكن مطهّما

ولم يكن مكلثما[211]

بل فاق كل من سما

من منتم لآدم

---

[207] المصدر السابق، ص267.

[208] للإشارة فإن أحاديث الشمائل تضم كلمات غريبة أحيانا، وقد شرحنا ما لابد منه ولاستيفاء ذلك يرجع إلى كتب الشمائل.

[209] الترمذي، أبو عيسى (ت279هـ). **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**. تحقيق: سيد بن عباس الحليمي. ط1 (مكة المكرمة: المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، 1993). 28. وقد خرجه البخاري، رقم 3548، والترمذي، رقم 3623.

[210] الشاسي القفال، **شمائل النبوة** ص125. ط دار التوحيد للنشر

[211] المطهم: المنتفخ الوجه. والمكلثم يعني: المستدير الوجه مع كثرة اللحم.

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أوصافه أنه لم يكن مطهّما ولا مكلثما ، وأصل هذا ما ورد في الشمائل للترمذي بإسناده إلى إبراهيم بن محمد من ولد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ إِذَا وَصَفَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ بِالطَّوِيلِ الْمُمَغَّطِ ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ ، لَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ ، وَلَا بِالسَّبْطِ ، كَانَ جَعْدًا رَجِلًا ، وَلَمْ يَكُنْ **بِالْمُطَهَّمِ وَلَا بِالْمُكَلْثَمِ** [212] ، وحكى مثل ذلك الإمام البيهقي في دلائل النبوة قال : أخبرنا أبو الحسن : محمد بن محمد بن الحسن الكارزي ، قال : أخبرنا علي بن عبد العزيز ، قال :

قال أبو عبيد في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: إن عليّا كان إذا نعته قال لم يكن بالطويل الممغّط ولا القصير المتردّد ، لم يكن **بالمطهّم ولا بالمكلثم** .

كان يطول كلّ من

ماشاه في كلّ زمن

وكان واسع العطن

يضحك بالتبسّم

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه كان لا يماشي أحدا إلا فاقه في الطول ، وأصل ذلك ما ورد عند البيهقي في الدلائل عن عائشة أنها قالت:" كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قامته أنه لم يكن بالطويل البائن ، ولا المشذّب الذاهب ، والمشذب :

الطول نفسه إلا أنه المخفّف ولم يكن صلى الله عليه وسلم بالقصير المتردّد وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده **ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ممن ينسب إلى الطّول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم** وربّما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما فإذا فارقاه نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الربعة ، ويقول نسب الخير كله إلى الربعة[213] "وهذا من عجائبه وتمام معجزاته.

وأما وصفه بسعة الصدر فقد ورد في غير ما حديث ، ومن ذلك ما ذكره أبو بكر محمد بن علي القفال الشاسي في شمائل النبوة بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: كان الحسن بن علي يحدّث عن النبي صلى الله عليه وسلّم بأحاديث سمع بعضها منه ووصفه ببعضها فأما ما وصفه به فإنا سألناه أن يجلّي لنا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: كان فخما مفخّما ، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر أقصر من المشذّب وأطول من المربوع ...سواء البطن والصدر **عريض الصدر** بعيد ما بين المنكبين.....الحديث[214] ، ويضحك بالتبسم ودليله ما ورد عند البيهقي ورواه بإسناده عن جابر بن سمرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنت إذا نظرت إليه قلت أكحل العينين وليس بأكحل وكان في ساقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حموشة **وكان لا يضحك إلا تبسّما**.[215]

وهو جليل قلـــب

بياضه مشـرّب

---

[212] الترمذي ، أبو عيسى (ت279هـ). **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**. ت: سيد بن عباس الحليمي.ط1 (مكة المكرمة:المكتبة التجارية ، مصطفى أحمد الباز ، 1993) ،32.

[213] المصدر السابق

[214] الشاشي القفال ، **شمائل النبوة** ص134 ط دار التوحيد للنشر.

[215] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** ، ص212 ج 1 ط دار الكتب العلمية.

بحمرة وأهدب

وأنجل ذو رسم

كان سيدنا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم جليل المشاش متبصّرا بالعواقب جل نظره الملاحظة بياضه مشرب بحمرة ، وأصل ذلك ما ورد في شمائل النبوّة للقفال الشّاسي ورواه بإسناده عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي ، عن أبيه ، عن جدّه عن علي قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال فإني لأخطب يوما على الناس وحبر من أحبار اليهود واقف في يده سِفْر ينظر ، فناداني وقال: صف لنا أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فقال علي رضي الله عنه : رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالقصير ولا بالطّويل البائن ...إلى أن قال **مشرب لونه حمرة** عظيم الكراديس ، شثن الكفّين والقدمين ، طويل المسربة ، **أهدب الأشفار** ، مقرون الحاجبين ، صلت الجبين ، بعيد ما بين المنكبين...الحديث [216] وحدّث بمثل ذلك البيهقي في دلائل النبوة عن الزهري محمد بن مسلم ، عن سعيد بن المسيّب أنه سمع أباهريرة يصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: كان مفاض الجبين **أهدب الأشفار**. [217]

يفترّ في أسنى ابتسام

كالبرق أو حبّ الغمام

وضحكه يجلو الظلام

كسرج في ظلم

في هذا وصف لكيفية ضحكه عليه الصلاة والسلام وأنه كان يفترّ عن مثل حبّ الغمام ، وقد ورد ذلك في حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال سألت خالي هند بن أبي هالة ، وكان وصّافا قلت صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السّكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه.....جلّ ضحكه التبسم ، **يفترّ عن مثل حبّ الغمام** [218] ، وكان إذا تكلّم رئي كالنور بين ثناياه كما ورد عن ابن عباس.

ووجهه **مدوّر**

وهو **خميص أزهر**

وهو بهيّ أسمر

مرتل التكلم

من تتبّع وصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم لاحظ التواتر في وصف وجهه بالتدوير ، والتدوير صفة حسنة في الوجه كما يقول الشراح ، ومما يؤصل ذلك ما رواه الترمذي في الشمائل بسنده عن محمد من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان علي رضي الله عنه إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: لم يكن رسول الله عليه وسلم بالطويل الممغّط ولا بالقصير المتردّد ، ولا بالسّبِط ، كان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، **وكان في وجهه تدوير** ، أبيض مشرب ...الحديث [219] ، وكان خميصا أزهر اللون يدل على ذلك حديث أم معبد حين قالت: **لم تعبه ثجلة وهي عظم البطن** وجاء في حديث هند

---

[216] المصدر نفسه ص131

[217] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** 214 ج 1 ط دار الكتب العلمية

[218] الترمذي ، **الشمائل المحمدية** تحقيق علي عبده كوشك147 وقف مكتبة نظام يعقوبي الخاصة . المنامة- البحرين.

[219] الترمذي ، **الشمائل النبوية** تحقيق علي عبده كوشك ص42 وقف مكتبة نظام اليعقوبي المنامة . البحرين

بن أبي هالة: معتدل الخلق بادن متماسك ، **سواء البطن والصدر** ، بعيد ما بين المنكبين ، أنور المتجرّد ، موصول ما بين اللّبّة والسّرّة بشعر يجري كالخيط ، عاري الثديين والبطن ، أشعر أعالي الصدر.[220] أما بهاؤه فحدِّث عنه ولا حرج فما رئي شيء أحسن ولا أجمل منه صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء في لونه وصفه بأنه أزهر اللّون ورواه ثابت عن أنس فقال: كان أزهر اللّون مثلما ورد وصفه بالسّمرة عن أنس أيضا قال: كان رسول الله عليه وسلم أسمر اللّون[221] ، وكان مرتِّل التكلّم ، وأصل ذلك ما جاء عند الترمذي في باب كيف كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا ، ولكنه كان يتكلّم بكلام بيِّنٍ فصلٍ ، يحفظه من جلس إليه.[222]

كأن ماء الذهب

في خدّه المهذّبِ

وكان **سبط القصب**

عرنينه ذو شمم

كان عليه الصلاة والسلام سبْط القصب[223] وقد ورد ذلك في مصنّفات كثيرة ، فمن بينها خلاصة سِير سيّد البشر لمحب الدين الطبري في الفصل السابع في صفته عليه الصلاة والسلام قال:" كان ﷺ ربعة من القوم لا بائن من طول ولا مقمحة عين من قصر[...]سائل الأطراف ، **سبط القصب** خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء.....[224] ." وكان صاحب عرنين أشمّ يشهد لذلك ما ورد في دلائل النّبوّة للبيهقي فيما رواه الحسن بن علي عن خاله قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم واسع الجبين ، أزجّ الحواجب ، سوابغ في غير قرن ، بينهما عِرق يدرّه الغضب **أقنى العرنين** ، له نور يعلوه.....الحديث[225] . قال ابن الأثير في الحديث: **فِي صِفَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «كَانَ أَقْنَى العِرْنِين» القَنَا فِي الأَنْف: طُوله ورِقَّة أَرْنَبَتِه مَعَ حَدَبٍ فِي وَسَطِه. والعِرْنِين: الأَنْف.**[226]

كامل أذن أدعج

وأشنب مفلّج

وأشكل مبتهج

والوجه ماحي الغمم

---

[220] الشاسي القفال ، **شمائل النبوة** ص189 ط دار التوحيد للنشر.

[221] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** ص 203 ط دار الكتب العلمية

[222] الترمذي ، **الشمائل المحمدية** تحقيق علي عبده كوشك ص146.

[223] سبط القصب: كل عظم مستدير أجوف ، بمعنى أنه لم يكن في ذراعه ولا في ساقيه ولا فخذيه نتوء ولا تعقيد. ينظر: ديوان **سعادات المريدين**.

[224] الطبري محب الدين ، **خلاصة سير سيّد البشر** تحقيق محمد عبد الغفار خان ص57

[225] البيهقي ، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** ص 214 ط دار الكتب العلمية.

[226] ابن الأثير ، **النهاية في غريب الحديث والأثر** ص116 ج 4

من بين الصِّفات التي ورد عن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه كاملُ أذن وهذا مظهر من مظاهر كماله الخِلْقِيّة والخُلقِيَّة ، وقد ورد في شمائل النبوة للقفّال الشاسي ما يدلّ على ذلك ، ومنه أنه جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: كان تامّ الأذنين[227] .

وقد جاء في صفته كذلك أنك كان أشنبًا ومفلّجًا ويعضد هذا حديث الحسن بن علي عن خاله في وصف النبي صلى الله عليه وسلم حيث جاء فيه:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسع الجبين...**ضليع الفم أشنب مفلّج الأسنان.**[228]

ومثله حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم **أفلج الثّنيّتين** ، وكان إذا تكلّم رئي كالنور بين ثناياه.

وكان أدعج العينين ويشهد لذلك ما سبق أن ذكر عن علي أنه كان إذا وصف رسول الله عليه وسلّم قال: كان في الوجه تدوير ، أبيض مشرب ، **أدعج العينين** ، أهدب الأشفار.[229]

وأما قوله " وأشكل مبتهج " فشاهده وأصله حديث جابر بن سمرة ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم ضليع الفم ، **أشكل العينين** ، منهوس العقبين[230].

أخلص في الخاتمة إلى فذلكة حاصلها أن نقول إن هذه القصائد موارد ثرة ومصادر غنية للشمائل المحمّدية. وذلك راجع إلى أن الشعراء الذين يكتبون في هذا المجال يكونون في الغالب على اتصالٍ بمراجع يوثّقون بها ما يقولون ويصفون به الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أن تأصيلها من آكد الأشياء عندي ليس لأنها غير موثوقة بها منذ البداية ، ولكن لأن ذلك يرفع من علميّتها ويضيف لها قيمة فوق قيمتها.

---

[227] الشاسي القفال ، **شمائل النبوة** للقفّال ص186 ط دار التوحيد للنشر.

[228] **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة** للبيهقي ص214 ط دار الكتب العلمية.

[229] المصدر نفسه.